

## الشارع العربي : بقايا أمل قديم!

25-12-2001

**إن صمت الشارع أدى إلى استخلاص استنتاجات لا تقاوم في الولايات المتحدة. و مفاد أولها أن الرأي العام العربي لا يحترم شيئاً آخر مثلما يحترم القوة و الصلابة. و قد صرح معلق أمريكي من المحافظين بأنه لـ "ترويض" الشارع العربي "ينبغي إثارة الرعب في أوصاله بدل تهدئته" مستدلاً بما حصل بعد شهرين من القصف على أفغانستان. و وراء هذه الصيحة الإنتصارية تبرز طرافة موقف اليمين الأمريكي: فهو يوظف الآن عبارة "الشارع العربي" التي لم يؤمن بها يوماً لتبرير سياسة استعمال مفرط للقوة التي نادى بها طويلاً**

كان للشارع العربي موعداً مع التاريخ لكن أخلفه. ففي ذروة الهجمات الإسرائيلية على الأراضي الفلسطينية و القصف الأمريكي ضد أفغانستان في شهر رمضان، ام يخرج هذا "الشارع". و حرص كتاب الإفتتاحيات و المعلقون الأمريكيون على إحصاء عدد المظاهرات في العالم العربي منذ بدء الحرب أسبوعاً بعد أسبوع: تسع خلال الأسبوع الأول، ثلاثة خلال الأسبوع الثاني ثم واحدة فلا شيء و أخيراً واحدة خلال الأسبوع السادس.

يجدر أن نتوقف قليلاً عند مفهوم "الشارع العربي" و عند جذوره. لقد اجتاحت العبارة الساحة السياسية مع حرب الخليج حيث توقع الكثيرون لهذا الشارع دوراً محورياً في مسار النزاع. و في الواقع، إننا نطلق اليوم عبارة "الشارع العربي" مثلما كنا نطلق بالأمس عبارات "الجماهير الشعبية" و "الشعب" و "العمال" و قبل ذلك "بروليتاريا". و في كل مرة توظف العبارة لتحديد العنصر الفاعل الذي يوجه مسار الأحداث السياسية.

و يؤشر تطور العبارة نفسها عبر كل مرحلة إلى إقرار بالفشل. إذ أن الإنتقال من البروليتاريا إلى الشارع يعني التحرك من المحدد نسبياً إلى الشائع الفضفاض و من الملموس الضيق إلى ضباب المتعدد الذي لا يخضع للحالة الإجتماعية و لا للإيديولوجية السياسية و لكنه يخضع ببساطة لثورة الغضب الحماسي.

و إذا كان الإهتمام بـ "الشارع العربي" كبيراً فلأنه يستجيب لحاجات أطراف متغيرة. و هو في أول الأمر ملجأً للمتقنين و قوات المعارضة التي كثيراً ما انتهت محاولاتها لوضع حد للأنظمة بالفشل. و الطرف الذي يتعرض للعتاب ليس الملاحظ الذي يكون قد أساء تقدير مدى التحولات الطارئة على الحركات الإجتماعية و سياسات الأنظمة و لكن الطابع "العفوي" لتحركات الشارع. و بهذا المعنى، فإن الشارع هو الفاعل السياسي المثالي الذي يمثل في آن واحد الإستسلام للواقع السائد و الأمل المتجدد باستمرار.. تمرد مفاجيء و غير متوقع. إنها "بقايا" أمل كان في الماضي متجذراً في التحليل الإجتماعي و السياسي و أضحى اليوم يتشبث بـ "الحديث".

ثم إن العبارة تستجيب كذلك لحاجات الأنظمة العربية نفسها و لجزء من أوروبا عندما يرون أن الشارع هو آخر حاجز ضد المصالح الأمريكية التي تعتبر مغرصة أحياناً. فعندما تريد واشنطن مهاجمة صدام حسين تلجأ الحكومات إلى رفع ورقة مخاطر رد فعل الشارع العربي على استقرار المنطقة بدل مواجهة الحجج الأمريكية بالترميزات المقنعة و اقتراح بدائل لها. غير أن الورقة تلك أثبتت اليوم أنها أقل فعالية. إذ أن صمت الشارع أدى إلى استخلاص استنتاجات لا تقاوم في الولايات المتحدة. و مفاد أولها أن الرأي العام العربي لا يحترم شيئاً آخر مثلما يحترم القوة و الصلابة. و قد صرح معلق أمريكي من المحافظين بأنه لـ "ترويض" الشارع العربي "ينبغي إثارة الرعب في أوصاله بدل تهدئته" مستدلاً بما حصل بعد شهرين من القصف على أفغانستان. و وراء هذه الصيحة الإنتصارية تبرز طرافة موقف اليمين الأمريكي: فهو يوظف الآن عبارة "الشارع العربي" التي لم يؤمن بها يوماً لتبرير سياسة استعمال مفرط للقوة التي نادى بها طويلاً.

و تبعاً لذلك، فإن أمريكا ترى نفسها بعد حرب أفغانستان "محيرة" من "بيع" الرأي العام العربي لتضرب أينما شاءت في العراق و لبنان و سوريا و ليبيا و اليمن. و ليس صدفة أن يشاع في العاصمة الأمريكية هذه الأيام كلام مفاده أنه ينبغي وضع حد لثابت من ثوابت الدبلوماسية الأمريكية في الخارج و هو أن الإستقرار الجهوي في المنطقة يمر عبر حل النزاع الإسرائيلي-العربي. و عليه فإن القضايا الإستراتيجية المتعددة التي أثارها أمريكا ما بعد 11 سبتمبر تستحق من جانب الدول العربية و الأوروبية أكثر من مجرد التلويح بالرد المحتمل للشارع العربي كجواب لها. و في الوقت ذاته ينبغي التفكير بجد في منطلق الحياة السياسية في البلد العربي. إذ أن اللغز الذي عجز الشارع العربي على حله يبقى قائماً. و إلا، كيف نفسر تعايش الإنعدام الشديد للمساواة و أنظمة فاقدة التمثيل و شعور بالإهانة على المستويين الجهوي و الدولي من جهة مع إستقرار سياسي ملفت من جهة ثانية ؟ و ماذا يمكن القول عن عالم عربي يبدو منفصلاً في آن واحد من العولمة و الهزلة العالمية في اتجاه الديمقراطية ؟

إننا نتحدث عن "الشارع العربي" و ليس عن "شارع آسياوي أو إفريقي أو أمريكي جنوبي- لأن هذا العالم بالضبط هو الذي يبدو قاصياً عن الباقي و هو الذي انفلت من إدراكنا. و نقول "شارع عربي" لأن حسب ما يبدو الإحباط و التذمر ينموان في الوسط الحضري و ليس الريفي و من هناك يمكن أن تنطلق الشرارة. و عليه لما تفشل الدولة العربية، فهي تُفشل قبل كل شيء المدينة.

ثم إن السعي لدفن مفهوم الرأي العام العربي ذاته أو الوصول إلى خلاصة مفادها أن مجرد استعراض للقوة يمكن من تجييده يعكس قصر نظر. و الأصوب أن نعرف محددات وتيرة الحياة السياسية في البلاد العربية مع إدراك فهم أحسن لها بدل تجاهلها.

مقال مترجم عن "لوموند" الفرنسية لروبرت ميلي: مستشار سابق لكليتين في مجلس الأمن القومي و باحث في مجلس العلاقات الخارجية